العالم الذي عاشته اليهودية عبر القرون الخالية . وعندما كتب احاد هاعام رسالته « قانون القلب » لم يجد بدا من التنديد بالحياة الشاذة التي عاشها اليهود وعجزهم عن الاستجابة للعالم الخارجي . ولكن الرائد الصهيوني نفسه وقع في نفس المركب الذهاني من زاوية المحافظة والنظر الى الوراء والحنين الى رحم الام بدعوته الى الرجوع الى ما قبل التوراة الى سني طفولة الشعب (حيث كان الشعب بريئا من الاثم) . « التهرب من الواقع » هو الصفة التي لفتت نظر اللجنة الملكية البريطانية في يهود فلسطين سنة ١٩٣٦(١٣).

لا يملك المختص بعلم النفس أمام هذا الاستعراض الوجيز غير أن يجد نفسه حيال صورة من صور الكآبة الذهانية ولن يحدوه الى التردد سوى انها تتعلق بشعب لا بفرد . ومن رأينا أن معاناة المجموعة لعلل نربطها عادة بالافراد أمر لا يساعدنا فقط على تفسير سلوك المجموعة بل سيعين أيضا المختصين على فهم كثير من معاناة الافراد . وعلى كل فطالما لفت الجانب رواد الحركة الصهيونية سواء بن بوروخوف او برنر او بنسكر . تساءل برنر هكذا : « حقا ان أدبنا يعاني ما يعانيه الرجل العجوز من اضطراب . انه أدب باثولوجي جدا . أعصابه محطمة ومحيطه ممزق . وقد أصبحت حياتنا ذاتها حياة باثولوجية . أفيمكن أن ينجو احتقار النفس الذي نحمله من ان يكون هو أيضا باثولوجيا ؟ »

للموضوع طبعا بعده السياسي العملي الخطير . ويتجلى ذلك من فهم ميكانيكية مركب الاثم والكآبة . على الرغم من محاولة التخلص من الاثم يجد صاحبه نفسه يلف ويدور حول ذات النقطة التي يريد نسيانها . انه مركب ذاتي الحركة يوقد نفسه بنفسه الى أن يجد الشخص نفسه مضطرا الى اعادة تمثيل الصدمة الرضية . ولكنه ما ان ينتهي من اعادتها حتى يكون الاثم قد زاد عمقا وتفاقما . الموقف الطبيعي للشعوب هو قبول سنة الحياة : الولادة فالنمو ثم الموت والانحلال . ولكن العقدة التي أتينا الى ذكرها حالت دون قبول بني اسرائيل نفس المصير . فراحت آلية الاثم تعيد التجربة تلو التجربة . لا يملك القاتل غير ان يعود الى مشهد الجريمة . وفي عصرنا هذا تضافرت عوامل موضوعية لاعادة التجربة مرة اخرى على يد الحركة الصهيونية .

اذا قبلنا بذلك نستطيع ان نفهم لماذا استطاع زعماء الصهيونية تحقيق المعجزة تلو المعجزة الا معجزة واحدة ، أبسط المعجزات وأيسرها : الوصول الى تفاهم مع جيرانهم . انه يتناقض مع النزعة الانتحارية وآلية الصدمة الذهانية . طالما ادعت تل ابيب بأنها تريد ان تعلم العرب درسا . الدرس الوحيد الذي نجدها نجحت في تعليمه للعرب هو فن الحرب ، كيف يقاتلون ويباغتونها . هل كان ذلك مجرد صدفة ؟ ليس هناك شيء اسمه صدفة في سلوك البشر . هناك شيء اسمه لاشعوري .

طالما ادعت انها تعمل للسلام والسكينة . لثلاث سنوات تقريبا ساد السلام والسكينة جبهة الاردن بعد ان قامت عمان بتصفية العمل الفدائي العلني . وعندما بدأ كيسنجر بفصل القوات أصرت تل ابيب على عدم اعطاء اي شيء للاردن . قصرت تنازلاتها على مصر وسوريا ، الدولتين اللتين هاجمتاها على حين غرة . هل كان ذلك تشجيعا للامان والسكينة ، أم مكافأة لمن يشحذ سيفه للاجهاز عليها ؟

البعد السياسي الاخر هو ان لذهان الكآبة جانبا مسعورا مانيا*. وغالبا ما يتوالى الجانبان توالي الليل والنهار . وعندما نكون في الدور المانى نمتلىء حيوية ونشاطا وقدرة الى حد شاذ يكتسح كل من يقف في طريقها . ومن رأينا أن تاريخ المجموعة

* Manic.